آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية مكتبية.

تصدر عن إدارة البحث العلمي والنشاط الثقافي بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث.

السنة الثانية - العدد الخامس - المحرم ١٤١٥ هـ، يونيو (حزيران) ١٩٩٤

صورة غلاف مجلة المقتبس السورية

على هامش وثيقة

الأستـــاذ نـــزار أباظـــة

كانت مصادفة جميلة أن يصل إلى مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ضمن الوثائق التي حاز عليها رسالة وجّهها رائد شعراء الإمارات في العصر الحديث سالم بن علي العويس إلى مدير المعهد العلمي السعودي العلامة محمد بهجة البيطار.

والطريف في الرسالة التي تحمل تاريخ سنة ١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٧ م أنها صدرت من منطقة الإمارات إلى مكة المكرمة، ثم حملت إلى دمشق، فبقيت فيها زمناً حتى عادت أخيراً إلى مسقط رأسها إن صح التعبير.

وهذه الوثيقة الصغيرة الحجم القليلة الكلمات تفتح أفقاً رحباً، وتعطي مدلولات كبيرة، وتشير إلى حياة أعلام فضلاء، كان لهم أثرهم في الحياة الثقافية، يجب أن نذكره بالخير، فنهتبل الفرصة ونتحدث عنه وعن أصحابه، ومنهم صاحب الرسالة هذه ومن أرسلت إليـــــه.

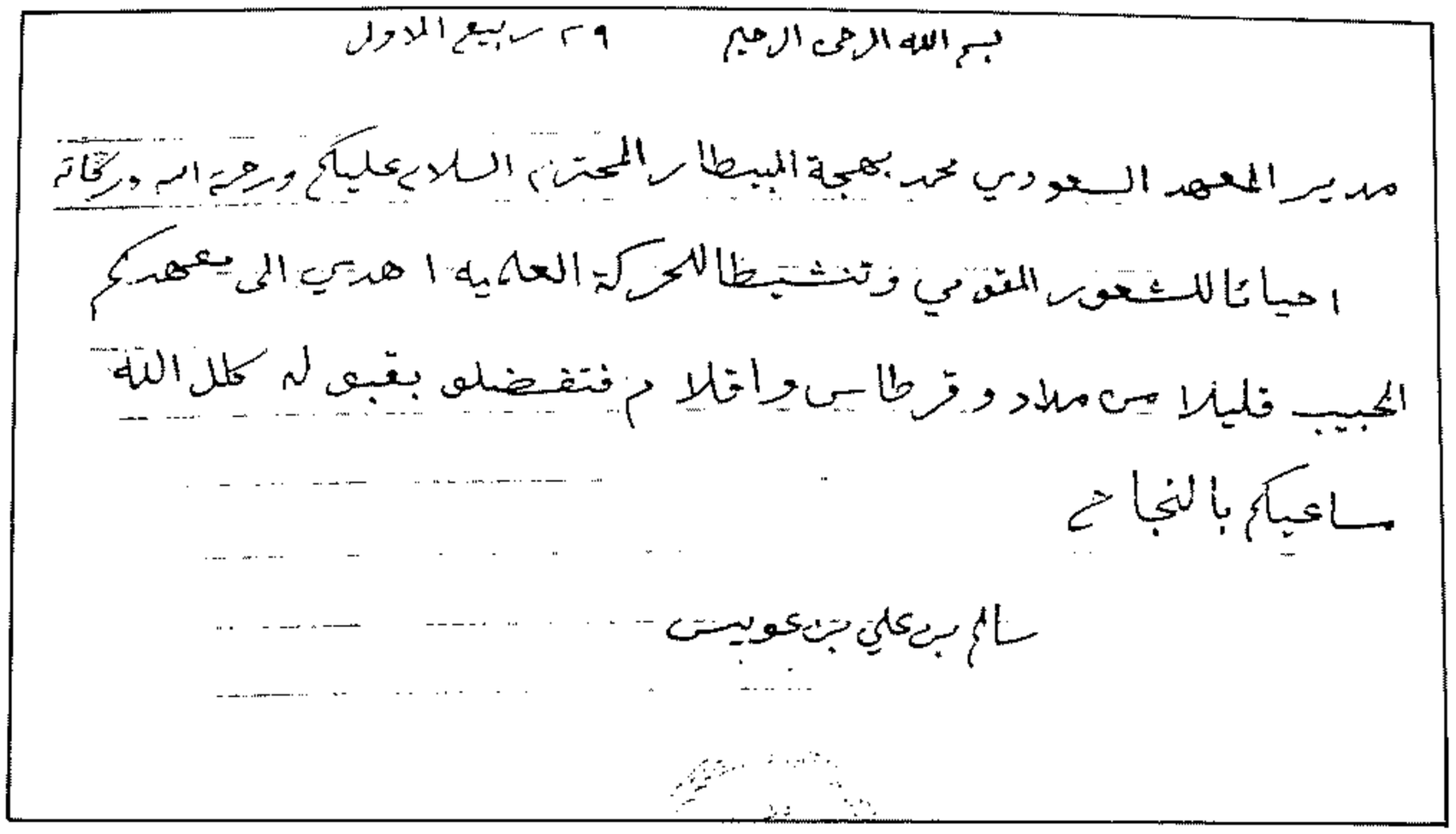
بسم الله الرحمن الرحيم ٢٩ ربيع الاول

مدير المعهد السعودي محمد بهجة البيطار المحترم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

احياءً للشعور القومي وتنشيطاً للحركة العلمية اهدي الى معهدكم الحبيب قليلاً من مداد وقرطاس واقلام فتفضلوا بقبول له كل الله مساعيكم بالنجاح

سالم بن علي بن عويس

فسالم بن علي العويس أحد الأعلام المعروفين في ساحل الإمارات، تنتمي أسرته المشهورة إلى العوابد، وهم بطن من آل بو شامس، فرع قبيلة النعيم. برز منها تجار عُرفوا في أسواق اللؤلؤ. وظهر منها كذلك أفراد اهتموا بالثقافة والأدب(١).

ولد سالم العويس في بلدة الحيرة بإمارة الشارقة سنة ١٣٠٧ هـ/ ١٨٨٧ م،

محمّد بهجة البيطار

ولما نشأ اهتم أبوه بتعليمه، فدفع به إلى المطوّع (الكتّاب) ليقرأ عليه القرآن الكريم، ويحفظ شيئاً من الحديث الشريف، ويتعلم مبادىء القراءة والحساب والسيرة النبوية والأناشيد. ولم يكن في المنطقة آنذاك من التعليم غير تلك الكتاتيب المعروف نظائرها في مصر والحجاز والشام، وغير أفراد من أهل العلم نبغوا من أهل البلاد، أو جاؤوها من الآفاق لتعليم الناس، فكانوا يعقدون لذلك حلق الدروس ويتصدرون للإفتاء(٢).

ثم مالبث بعض هؤلاء العلماء أن أسسوا مدارس خاصة بجهودهم الفردية أو بدعم صلحاء التجار. وكان من أوائل تلك المدارس المدرسة الوهيبية التي أسسها العالمان النجديان الشيخ عبدالصمد التميمي وأخوه الشيخ عبدالرحمن، فانتسب إليها الشاعر وكانت أسرته قد انتقلت إلى الحمرية في إمارة دبي حيث المدرسة، فنال منها حظاً من

العلوم الإسلامية وعلوم العربية، تفوق فيها على أقرانه. وأهّله ذلك للقيام بالخطابة والإمامة في بعض المساجد حسبة دون أجر(٣).

ولم يكتف سالم بما أخذ عن شيوخه ومعلميه، فانكب على مطالعة ما اعتلقته يداه من الكتب، وانشغل بقراءة دواوين الشعر والنثر، وتابع الصحف القليلة التي كانت تصل المنطقة، كجريدة أم القرى الحجازية ومجلة الفتح المصرية وسواهما من الدوريات الرصينة(٤).

وكان طبيعياً أن يعمل سالم بتجارة اللؤلؤ مهنة أسرته، ويرث عنها خبرتها فيها، ثم جمع إليها التجارة بالمواد الغذائية. لكنه ولأمر ما اتجه نحو العمل الزراعي وأخذ يحث من حوله على الكسب منه. ولعله فعل ذلك في الثلاثينات حينما كسدت تجارة اللؤلؤ بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية بين سنتي ١٩٢٨ و١٩٣٣ التي زادها سوءاً ظهور اللؤلؤ الصناعي(٥).

إلا أنه كان مع هذا يتعاطى التجارة ويستقبل الدّلالين الذين يعرضون عليه ما عندهم من لآلىء وبضائع(٦) في مجلسه الذي يعد نادياً أدبياً حافلاً، يضم أعيان البلد والأصدقاء ممن كانوا يخوضون المناقشات ويستمعون إلى قصائد الشاعر ويقرؤون في الصحف التي تأتيه(٧).

وكما كان سالم من اسرة تجارة، كان من اسرة شعر، ورث عنها القريض؛ فابوه كان شاعراً وكذا جده وجدته لأبيه(٨). غير ان شعر هؤلاء ضاع لأنه لم يدوّن.

وكانت أوليات قصائد سالم تنبع من البيئة، عامية الشكل والبناء، تتناول في موضوعها الإبل وسباق الهجن، وهو الموضوع الذي أحبه الشاعر وشغف به(٩). وقد أُلهم الشعر وهو في السادسة عشرة(١٠).

ولكن الفتى العربي سليل الشعراء الذي نشأ النشأة الإسلامية وورث الحس المرهف والذي **اخذ نفسه بثقافة عصره وتابع الأحداث من خلال المجلات والصحف لم يبق حبيس بيئته، ولم تشغله تجارته او زراعته عن قضايا امته التي اعتز بها، ولا عن وطنه الكبير الذي احبه. فإذا به يعايش هموم العروبة من الخليج إلى المحيط، ويشارك بشعره في قضاياها الكبرى.**

و أمدته الأحداث التي مرت على البلاد العربية في مختلف أقطارها من جراء التسلط الاستعماري عليها.. أمدته بفيض شعري غني، فأشاد بثورة الجزائر(١١)، وأعجب بنضال عمان(١٢)، وابتهج للوحدة السورية المصرية(١٣)، ودعا إلى الوحدة الكبرى(١٤)، وتناول القضية الفلسطينية مبرزاً فيها البعد القومي(١٥)، وفضح نوايا الاستعمار(١٦)، وانتقد هيئة الأمم(١٧)، وحث العرب على الثورة من أجل التحرر والعزة(١٨).

ولعل أهم مايميّز شعر سالم العويس بوصفه ابن الخليج أنه ركّز على وحدة وطنه الخليجي، وأكدّ وحدته العربية، والشواهد على هذا كثيرة منها قوله في قصيدته «عروبة الخليج»(١٩):

يباديكَ من اهلِ الخليج ركودُ
وما هو مَنهم غفلةٌ وجمود
منازِعُ في اهلِ الخليجِ صحيحةٌ
وما مَن مقيم في الخليجِ بليد

تميدُ بهم اعطافهم في دمائِهم
ليوم تبدّى للنفوسِ جديد

فلو قيلَ في ساعاتِ يومٍ وليلةٍ
هُمُ العُرب التفوا ولاتَ حدود

والملفت لنظر من يستعرض ديوان شعر سالم أنه يجد القصائد التي أنشدها للعروبة شكلت الجانب الكبير من ديوانه، في حين تناول الجانب الآخر بقية الأغراض. وهذه الأغراض تدور حول الأفكار الإسلامية الكبرى وما تفرع عنها من قضايا وشؤون إنسانية كحرية الإنسان(٢٠) وحرية الرأي(٢١)، والدعوة إلى العلم والتعليم ومحاربة الجهل(٢٢) والإصلاح الاجتماعي(٢٣). ولا يفوته بعد ذلك الغزل العفيف الرقيق(٢٤).

ولئن ظهر في مصر شوقي وحافظ، وفي العراق الرصافي والزهاوي، وفي سورية البزم والزركلي وابو ريشة، وفي لبنان الأخطل الصغير، فإنّ سالماً العويس كان احد رواد الشعر في الخليج العربي، شارك هؤلاء المذكورين في التعبير عن القضايا التي كانت تشغل العرب آنذاك.

كان سالم العويس رقيق الحاشية، هادئاً، يؤثر العزلة، مخلصاً لمبادئه، وقد بقي على إخلاصه لقضيته حتى وافته المنية عام ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩ م.

*

وأما العلامة محمد بهجة البيطار فأحد العلماء الأعلام، ذاع صيته في كثير من الأقطار العربية والإسلامية، وعرف في أوروبا وأمريكا. ولد بدمشق سنة ١٣١١ هـ/ ١٨٩٤ م لأسرة عرفت بالعلم، وخرج منها علماء لامعون ملؤوا زمانهم. قرأ في المدارس الابتدائية والثانوية المشهورة ببلده، ثم تابع دراسته على والده وجدِّه لأمه الشيخ عبدالرزاق البيطار (ت ١٣٣٥ هـ/ ١٩١٦ م) وعلى علماء دمشق الأعلام، كالشيخ جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤ م) أحد رجال الإصلاح في الشام، والشيخ محمد الخضر حسين التونسي شيخ الأزهر (ت ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨ م) قرأ عليه حينما كان في دمشق، والشيخ محمد بدر الدين الحسني (ت ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥ م) محدث الديار الشامية. وحصل على إجازاتهم. و أُعجب بالسيد محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥ م). كما قرأ اللغة الفرنسية وأجادها في المدرسة العازارية الميدانية. وأضاف إليها دراسات خاصة على المسيو موريس(٢٥).

تولى الشيخ البيطار الخطابة والتدريس منذ سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م خلفاً لوالده في مسجد كريم الدين، أكبر مساجد حي الميدان، حيث تسكن أسرته. وبقي يقوم بهما حتى وفاته. لم ينقطع إلا لسفر أو مرض. وقام بالتدريس كذلك في المدارس النظامية.

وبعد قيام الحكومة العربية الفيصلية بدمشق سنة ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٩ م رأى الأمير فيصل بن الحسين بالتشاور مع السيد محمد رشيد رضا أن يرسل إلى الأمير عبدالعزيز آل سعود في نجد (قبل أن يكون ملكاً) رسالة شفوية وكتابية تمهيداً «لعقد اتفاق عام بين جميع أمراء الجزيرة العربية وأئمتها دفعاً للعدوان الأجنبي»(٢٦)، فاختير المترجم لحمل الرسالة، فقام بها، ولكنه تكبد في الطريق

١. الأدوات التي يستعملها تجار اللؤلؤ.

الذي قطعه إلى نجد بالقطار وعلى ظهور الإبل مشاق عسيرة، وسلبه قطاع الطرق كل ما يحمله من مال وزاد، وكادوا يقتلونه، مما عاقه عن الوصول إلى هدفه مباشرة. غير أنه استطاع إيصال الرسالة مع أحد النجديين إلى الأمير عبدالعزيز، ومعها رسالة أخرى منه، يشرح له فيها أحواله التي منعته من اللقاء به(٢٧).

وما لبث الشيخ البيطار أن علا كعبه في العلم وذاع صيته، فانتخبه المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية اليوم) عضواً عاملاً سنة ١٣٤٢ هـ/ ١٩٢٣ م.

ولما عقد مؤتمر العالم الإسلامي سنة ١٣٤٥ هـ/ ١٩٢٦ م في مكة المكرمة عاصمة المملكة العربية السعودية أيام الملك عبدالعزيز. كان الشيخ البيطار أحد المشاركين المشار إليهم فيه. وقد لفت حضوره انتباه الملك عبدالعزيز وكان اتصل به عن طريق المراسلة المذكورة آنفاً، فكلّفه إدارة المعهد العلمي السعودي في أم القرى (موضوع الوثيقة) فمكث يديره خمس سنوات، تقلد خلالها عدداً من وظائف القضاء والتدريس، منها التدريس بالحرم المكي. وكان للمعهد المذكور أهميته الخاصة، فقد أنشأته «إدارة المعارف العامة» التي أسسها الملك عبدالعزيز سنة ١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٦ م بعد توحيد الجزيرة العربية، وأوكل إليها الإشراف على التعليم(٢٨). وافتتح المعهد في مكة المكرمة أول مرة عام ١٣٤٥ هـ/ ١٩٢٧ م، وأطلق عليه في البداية اسم «المعهد الإسلامي»، وهو أقدم مؤسسة تعليمية في المملكة، وقد عنيت إدارة المعارف بتطويره وتحديث مناهجه، وإدخال العلوم الحديثة عليه، كما حرصت الدولة على تزويده بنخبة من المدرسين من كبار علماء الحجاز ومصر ونجد والبلاد العربية والإسلامية، وألحق به قسم

ليلي لمساعدة الموظفين بالدولة على الدراسة فيه. وبعد أشهر قليلة أغلقته الإدارة لضعف الإقبال عليه. ثم في بداية عام ١٣٤٧ هـ/ ١٩٢٩ م أعادت افتتاحه بتنظيم جديد باسم «المعهد العلمي السعودي»، وافتتح له فرعان بالمدينة المنورة وعنيزة بالقصيم(٢٩). وكان هدف الدراسة فيه إعداد الطالب خلال خمس سنوات ليكون معلماً في المرحلة الابتدائية، وقد سدّ خريجوه بعض الحاجة إلى المعلمين في المدارس الابتدائية(٣٠).

وتميزت جهود الشيخ البيطار في المعهد، إذ استطاع تطويره وقام على تنظيمه وإدارته خير قيام(٣١).

رجع إلى الشام بعدئذ ليتابع نشر العلوم في حلقات المساجد وصفوف المدارس وردهات المعاهد ودور المعلمين بدمشق وبيروت.

وحين أراد الملك عبدالعزيز إنشاء دار التوحيد السعودية لتخريج المرشدين والدعاة والقضاة في الطائف(٣٢) قلده إدارتها، فأقام هناك ثلاث سنوات حتى استقرت الدار على نهجها، رجع بعدها إلى دمشق أستاذاً محاضراً في كلية الشريعة بالجامعة السورية، وبقي فيها حتى أحيل إلى التقاعد، فقصر أعماله على حلقات المساجد وأحاديث الإذاعة وأعمال المجمع الذي كان فيه من أكثر أعضائه نشاطاً وإنتاجاً ومشاركة.

رحل الشيخ البيطار إلى عدد من البلاد العربية والإسلامية والأجنبية، فسافر إلى العراق ومصر والهند وباكستان إضافة إلى رحلته إلى الحجاز وأطراف نجد. ودعي لزيارة مجمع العلوم في الاتحاد السوفييتي السابق مع عدد من أعضاء المجمع العلمي العربي سنة ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٤ م، فزار موسكو وطشقند وسمرقند وبطرسبرغ وغيرها(٣٣). ودعته جمعية أصدقاء الشرق الأوسط لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٦ م بغرض تقريب وجهات النظر بين المسلمين والمسيحيين هناك، فلبى الدعوة وطاف على بعض مدن الشمال، وألقى فيها عدداً من المحاضرات(٣٤).

عرف العلامة البيطار باخلاقه الرصينة وسماحته وطهارة قلبه وعفته وتواضعه وهدوئه وحلو كلامه. كان عالماً يزين علمه العمل. تاثر باستاذه الشيخ جمال الدين القاسمي وبالشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار في الدعوة إلى التنّور الفكري وتنقية الإسلام من الشوائب التي دخلته، وكان يدعو إلى ذلك بلطف وهدوء، بعيداً عن العنف الذي يسلكه بعض دعاة الإصلاح، فينفَرون البعيد ويسيئون إلى القريب.

وما زال عاكفاًعلى العلم حتى لقي ربه سنة ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م فبكاه محبوه وعارفو فضله.

وقد ترك عدداً من الأعمال العلمية بين كتب ألفها ومصنفات حققها ورسائل ومحاضرات ومقالات أنشأها للمجمع. وهي أعمال تتراوح بين علوم العربية واللغة والدراسات الإسلامية، تشير إلى بعض علمه وفضله(٣٥).

*

هذه هي خلفيات الوثيقة و ما يتصل بها. ولئن بقي من كلمة تقال فإنه لابد من الإشارة إلى مدى اهتمام كاتبها الشاعر

سالم العويس بمتابعة الأخبار الثقافية إضافة إلى حبه لمعاهد العلم وتشجيعه لها، فما أهداه الشاعر إلى المعهد إنما هو رمز كبير.

ثم إنّ ماجاء في الرسالة يعدّ شيئاً فريداً يدل على وحدة هذه الأمة؛ فالمعهد أنشأته الحكومة السعودية وأداره ووضع مناهجه رجل من الشام، وابتهج له أهل العلم في سائر أقطار العروبة ومنهم شاعر الإمارات الذي يرسل إلى المعهد ما يرسل «إحياء للشعور القومي» كما يقول في الرسالة.

وإذن فالروح القومية كانت ظاهرة ذات شأن لدى كاتب الوثيقة يعبر عنها بوضوح في حياته مثلما يعبر عنها في أشعاره.

ثم إنّ هناك أمراً مهماً في هذه الوثيقة يدركه من يطّلع على حياة الرجلين، فالعويس يربطه بالبيطار وحدة الفكرة والاتجاه والمبدأ، وكلاهما متأثر بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقد قرأ الشاعر على العالمين النجديين في مدرستهما بالحمرية وتأثر بهما وكان يغشى مجلسه أصدقاء له من الأحساء ونجد. وكثيراً ما كان يحتدم النقاش عنده حول مسألة العودة إلى السلف(٣٦). وأشرنا آنفاً إلى أنّ البيطار تأثر بشيخه جمال الدين القاسمي والشيخ محمد رشيد رضا، وهما من هما.

رحم الله أهل العلم في كل زمان وكل مكان، إنهم قدوة صالحة يستضاء بذكرهم على الأيام.

الحواشي :

١ – سالم بن علي العويس، وثائق ودراسات وأبحاث. الشارقة، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، ٤٧.
٢ – المرجع السابق ٤٦، ٧٣.
٣ – المرجع السابق.
٤ – المرجع السابق ٧٥.
٥ – اقتصاديات أبوظبي، د. مانع سعيد العتيبة ط ٢ ، ٣٥.
٦ – سالم بن علي ٦٠.
٧ – المرجع السابق ٧٤.
٨ – المرجع السابق٤٧.
٩ – المرجع السابق٤٧، ٩١.
١٠ – مقدمة ديوان نداء الخليج ٥.

١١ – الديوان ١/ ١٦٣.

١٢ – الديوان ٢/ ٦٢.
١٣ – الديوان ١/ ٩٤، ٢/ ١٦.
١٤ – الديوان١/ ١٠٠، ١٠٤، ١٠٩، ١٥١؛ ٢/ ٢٣، ٢٧، ٣٤، ٧٦، ٧٩.
١٥ – الديوان ١/ ٢٠، ٦٦، ١٢٢.
١٦ – الديوان ١/ ١٦، ٦٨، ٧٧، ١٣٠، ٢/ ٣٣.
١٧ – الديوان ١/ ١٤٧.
١٨ – الديوان ٢/ ٣٧.
١٩ – الديوان ١/ ٣٠.
٢٠ – الديوان ١/ ١٨٨.
٢١ – الديوان ١/ ٧٠، ١٨٨.
٢٢ – الديوان،١/ ١٢٨، ٢/ ٥٦.
٢٣ – الديوان ١/ ٥٠، ١٤١، ١٩٤، ٢/ ١٨.
٢٤ – الديوان ١/ ٦٣، ١٢٠.
٢٥ – وقد أسلم المسيو موريس متأثراً بالبيطار، وتسمى عبدالله الريحاني. الرحلة النجدية الحجازية ٥١.
٢٦ – الرحلة النجدية : المقدمة.
٢٧ – انظر حيثيات الرحلة والرسالة التي وجهها إلى الأمير عبدالعزيز في الرحلة النجدية، ٣٩.
٢٨ – انظر كتاب شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ٢/ ٦٣٦ ط بيروت ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م
٢٩ – التعليم في المملكة العربية السعودية لخالد سليمان العاصم ط الرياض ١٤١٣ هـ، ٨.
عبدالعزيز، ٢/ ٦٣٦.
٣٠ – شبه الجزيرة في عهد الملك
٣١ – التعليم في المملكة العربية السعودية.
٣٢ – جاء في مقدمة نظام الدار: «أما بعد فقد أسس في مدينة الطائف من مدن الحجاز الشهيرة في شهر المحرم الحرام سنة ١٣٦٤ معهد عال سمي دار التوحيد السعودية لتخريج المرشدين والدعاة والقضاة» عن نشرة من النظام المذكور محفوظة في مركز جمعة الماجد برقم ١٠٧٩ – وثائق.
٣٣ – الرحلة النجدية الحجازية، ٥٨.
٣٤ – المرجع السابق، ٥٩ – ٦٠.
٣٥–للتوسع في ترجمته، انظر تاريخ علماء دمشق ٢/ ٩١٨ لمحمد مطيع الحافظ ونزار أباظة وكتاب الرحلة النجدية الحجازية ترجمة البيطار لنفسه في آخرها ومحمد بهجة البيطار: حياته وآثاره للدكتور عدنان الخطيب.
٣٦ – سالم بن العويس ٧٤.